نصيب الصحافة في مكافحة الاجرام

لحضرة صاحب العزة محمد البابلي بك

مدير مدرسة البوليس

من الحق أن نحيي الخطوات الموفقة التي خطتها الصحافة المصرية في العصر الحديث . وأعني الصحافة بأوسع معانيها حتى لتشمل كل ما ينشر بمختلف وسائل النشر ، من جرائد ومجلات ، إلى سينما إلى مسرح إلى راديو إلى جراموفون .

لقد ارتفع شأن الصحافة وبلغ الذروة في مدى هو من القصر بحيث تبدو الصحافة كنجم ما كاد يبزغ حتى امتد شعاعه وتلألأ نوره فأخذ بالقلوب والأبصار .

ولم تعد الصحافة مجرد صناعة أو حرفة يراد بها الكسب ، بل صارت عمل هيئة مسئولة تؤدي مهمة قومية جليلة لا غنى عنها للحاكمين ولا للمحكومين . وذلك أنها حلقة الاتصال بين الفريقين ، بل هي تكاد تقوم من الرأي العام مقام مشاعره وحواسه ، فبها يبصر ويسمع وينطق .

نعم . ولم تعد رسالة الصحافة مقصورة على تغذية الرأي العام بالأنباء ، بل ارتقت من ذلك إلى توجيهه وإرشاده ، بل إلى إرشاد الحكومات نفسها .

ولم يعد الإلمام بفن التحرير والإنشاء كل ما يجب توافره في الصحفي ، بل صار التسابق في مضمار الصحافة العالمي يتطلب جانبا عظيما من الثقافة والعلم والذكاء والنشاط البدني ، كما يحتاج إلى صفاء الذهن ويقظته ، وإلى سرعة الخاطر وسعة الحيلة وحسن التقدير وقوة الاحتمال ، والقدرة على تنسم الأخبار والتقاطها من أدق مصادرها وأعمق مكامنها .

وأخيرا لم تعد الصحافة عملا هينا مأمون الجانب ، بل صارت تحفها الأخطار الجسام . فقد يتطلب عمل الصحفي التسلل الى صفوف الأعداء في أوقات الحروب ، أو الوقوف لتسجيل مشاهد القتال تحت وابل من النيران وهو أعزل إلا من آلته المصورة أو قلمه الصغير .

وها نحن أولاء نرى الدول تستخدم الصحافة في حرب الدعاية وتراها سلاحا ماضيا فعالا .

فلا غرابة بعد هذا كله أن يحيط الدستور حرية الصحافة بسياج من الرعاية ، وأن نرى الدول تحسب لها حسابا كبيرا والحكومات تخطب ودها وتنشد عونها وتجعل لرجالها حظا عظيما من احترامها وتقديرها وتقدم إليهم من المعونات و " الامتيازات " ما يسهل لهم أعمالهم .

و إذا كانت هذه الأداة ذات القوة والسلطان ، لا يعسر عليها تحقيق غرض من أغراضها إذا ما وجهت إليه جهودها وعملت على توجيه الرأى العام إليه فما أعظم النفع الذى تسديه إلى المجتمع صحافة رشيدة مخلصة ، وما أفدح الضرر الذى تجلبه صحافة سيئة المقاصد والاتجاهات .

وعلى قدر اتساع نفوذ الصحافة تكون تبعتها أمام الرأى العام . فالصحفى الذى يقدر واجبه يعرف أن مسئوليته الأدبية أكبر من كل مسئولية مدنية أو جنائية ، ويكون شديد الحذر واليقظة فيما يقدمه إلى قرائه من أنباء وآراء ، ويدرك أن الغذاء اليومى الذى يصنعه للجمهور هو غذاء للنفوس والعقول . وأن الأمانة تحتم عليه أن يجعله غذاء صالحا نافعا خاليا من جراثيم الأمراض والأدواء .

والآن ما نصيب الصحافة فى مكافحة الجريمة؟ وهل قامت بهذا النصيب كاملا ؟ ، إن واجب الصحافة — وهو لا يخرج عن معاونة رجال الأمن والعدالة — يمكن أن يؤدى من طريقين متحاذيين أو قل متصلين ، هما إعداد الرأى العام ضد الإجرام ، والتحفظ فيما يذاع من أنباء عن الجريمة والمجرمين .

والطريق الأول ممهد ميسور للصحفى المتمتع بثقة الجمهور ، فالمشاهد أن الجمهور سريع التأثر بما تغذيه الصحافة به من آراء وأنباء . وفى وسع الصحافة متى أخلصت أن تعمل الكثير لتوجيهه فى طريق محاربة الرذيلة فى أبرز صورها وهى الجريمة .

حدث أن حكومة الولايات المتحدة هالتها الزيادة المطردة فى الجنايات الخطيرة وفى عدد الطغاة من كبار القتلة والسفاحين الذين زادهم طغيانا أنهم كانوا محل إعجاب الجمهور الأمريكى بما يأتونه من ضروب المجازفة والاستهانة بالسلطة الحاكمة حتى عرف عن بعضهم أنه كان يرتكب أفظع الجنايات لا لشىء إلا طلب الشهرة وذيوع الاسم بين الجمهور ، وأنه كان يعنى باقتناء القصاصات مما تنشره عنه المجلات والصحف ويحرص على مطالعتها مباهيا مفاخرا .

هبت الحكومة لدرء هذا الخطر الفادح فعقدت مؤتمرا لمكافحة الإجرام ضم ممثلى الولايات كلها وكان من أهم قراراته الاستعانة بالصحافة لتنظيم حملة ضد الإجرام ، وناشدت رجال الصحافة ألا يدخروا وسيلة لتنفير الجمهور من الجريمة ، وأوضح أحد المؤتمرين أن من أهم تلك

الوسائل الابتعاد ما أمكن عن نشر ما يكون من ظروف الجريمة داعيا إلى العطف على المجرم أو التماس العذر له أو نعته بإحدى الصفات المحببة كالوفاء أو الشهامة أو الجرأة أو المهارة وألا يغفل ذكر الناحية المتعلقة بالمجنى عليه، فاذا ما نشر حادث مقتل مثلا فعلى الصحفى ألا يفوته أن ينشر إلى جانب صورة القاتل صورة أخرى لجثة القتيل يبين ما حدث بها من تشويه، أو صورة لزوجته التى صارت أرملا وأولاده الذين أصبحوا أيتاما . بذلك يضع أمام أنظار الجمهور كل ما فى عمل الجانى من قسوة ووحشية ، ويستثير فيه روح السخط على الجريمة والمجرم. ولقد عبر عن ذلك "بقوله ما من وسيلة لإثارة غضب الرأى العام واشمئزازه من عمل المجرم أقوى من أن يوضع هذا العمل تحت أنفه ليشم رائحته الكريهة" .

وسرعان ما لبت الصحافة نداء الحكومة فأثارت حربا ضروسا على الإجرام مستخدمة تنفيذها الهائل ووسائلها الجبارة وأطلقت على كبار القتلة والسفاكين لقب (عدو الشعب الأول) وذهب بعضها إلى حد المجازفة فخصصت إحدى الجرائد الكبرى مكانا دائما لنشر صور كبار المجرمين الهاربين، وأعلنت عن مكافآت كبيرة تبرعت بها من مالها الخاص لمن يدل عليهم، وسارت فى هذه الحملة الموفقة غير عابئة بما كان يتلقاه رؤساء تحريرها يوميا من كتب التهديد والوعيد . كذلك قام اتحاد موزعى ومخرجى أشرطة السينما بحملة مماثلة فابتدع سلسلة من الروايات البوليسية تبين أن طريق الإجرام مهما بدا ميسورا أو مأمون العاقبة صائر بصاحبه حتما إلى الوبال .

على أن الطريق الثانى وهو التحفظ فى نشر أنباء الإجرام محفوف بالمتاعب ، ذلك لأن الجمهور يضم بين جنباته شتى الطبقات ومختلف الطوائف، ففى صفوفه الرجل العادى الذى يود أن يكون على بينة من حالة الأمن، وفى صفوفه المجرم الذى قد ينبهه النبأ إلى خطأ ارتكبه فيتداركه أو خطر يترقبه فيجتنبه أو دليل يتهدده فيسعى للقضاء عليه، وفيه المحقق الذى يريد أن يحاط تحقيقه بالكتمان حتى يتمكن من اقتناص فريسته، وفيه المقلد الناشئ الذى قد تغريه حيلة ما كرة توصل بها مجرم إلى ارتكاب جريمته أو الإفلات من يد العدالة أو يستهويه على المسرح أو الستار الأبيض منظر يذكى فيه غريزة التقليد فيندفع وراءها منزلقا إلى هاوية الإجرام .

وقعت فى بندر المنيا جناية سرقة استعمل فيها اللصوص طريقة قذف الحبل ذى العقله المنزلقة كما استعملوا لتضليل البوليس طريقة طلى وجوههم وأيديهم بطلاء أسود . وحدث بالقاهرة أن عرض بدار السينما منظر لقاطع طريق كان يستخدم لإخفاء ملامحه طريقة ربط منديل على أنفه فما كادت تمضى على عرض هذا الشريط أيام معدودة حتى ارتكب بعض موظفى البيوت المالية حادث سرقة بالإكراه استخدموا فيه تلك الطريقة ذاتها .

والصحفى فى موقف كهـذا أشبه بمن يقدم علاجا واحدا بعينه لأسرة فيهـا الصغير والكبير والصحيح والعليل ، وقد يكون العلاج مقويا للرجل ، شديد الوطأة على الصغير ، قاتلا للعليل .

فى مثل هذا الموقف المحير اختلف الباحثون ، فتطرف بعضهم إلى حد القول بوجوب وضع رقابة على الصحافة بحيث لا تنشر من أنباء الإجرام إلا ما يبيح رجال الأمن نشره وهذا رأى فضلا عن مخالفته للدستور متعذر تنفيذه عقلا وعملا ، إذ لا ينتظر أن يتم التعاون بين رجال الأمن والصحافة من غير طريق تبادل المنفعة وتبادل الثقة ولقد قال أحد رجال البوليس الانجليزى " إن من يخاف من الصحافة إنمـا يخاف من نفسه " .

ولا يظن أحد أن الصحافة رغم ما تتمتع به من حصانة دستورية قد نجت من غائلة الرقابة فإن عليها رقيبين قويين لا تستطيع التخلص منهما لحظة واحدة هما ضمير الصحفى وعين الرأى العام .

وتطرف فريق آخر إلى القول بوجوب نشر كل أنباء الإجرام مطلقة من كل قيد . وحجته أن الرأى العام يجب أن يحاط علما بكل ما يتعرض له من المخاطر لكى يستطيع اجتنابها مثلما يحتاج قائد السيارة إلى أن ينار كل الطريق أمامه ليتمكن من تجنب ما فيه من منهاو ومزالق ، أو مثلما يحتاج الجسم إلى أن يحقن بالأمصال المحتوية لجراثيم الأمراض ليكتسب المناعة الكافية لمقاومتها .

وهناك رأى وسط هو أن يترك للصحفى أن يستخدم ما وهبه الله من خبرة وحسن تقدير فلا يقدم لجمهوره إلا ما ترجح لديه فيه كفة النفع على كفة الضرر. على أن هذا الرأى وإن بدا لأول وهلة هينا ، ليس دائمـا من البساطة بهذا القدر متى جاء دور التطبيق العملى .

صحيح أن هناك من الآراء والأخبار مالا تعترض سبيله صعوبة ، فمن المسلم به مثـلا أن نشر كل نبأ أو رأى من شأنه تنفير الجمهور من الجريمة أمر واجب ، كما أن كل ما من شأنه تمجيد الجريمة والإشادة بعمل الجانى لا يصح نشره بل هو محل جزاء بمقتضى القانون .

كذلك من الأمور المسلم بفائدة نشرها ، الأنباء والأوصاف الدالة على المجرمين الهاربين أو الأشخاص الضالين أو المخطوفين . أو الأشياء الثمينة الضائعة أو المسروقة . كذلك لا خلاف فى أن من المحظور سبق التحقيق أو الأبحاث البوليسية و إفشاء أسرارها قبـل أن تتفتح عن نتيجة حاسمة لما فى هتك تلك الأسرار من تنبيه لأقارب المتهمين و إتاحة الفرصة أمامهم للعبث بالأدلة والتأثير على الشهود .

اما نشر الإحصاءات الجنائية وغيرها من البيانات الرسمية المتعلقة بالإجرام فمع أنها كما سماها البعض " ميزانية الإجرام" التي يجب أن يحاط الرأى العام بها علما ، فهناك من يقول بعدم نشر ما كان منها منطويا على تشجيع للمجرمين أو إرهاب للجمهور أو إضعاف لثقته بسلطة الأمن ؛ مثال ذلك الأرقام والبيانات التي تشير إلى قلة عدد رجال الحفظ أو ضعف سلاحهم بالنسبة لسلاح الأشقياء أو كثرة حوادث اعتداء المجرمين على رجال الأمن أو ارتفاع نسبة القضايا التي حفظت لعجز البوليس عن معرفة الجانى أو ضبطه أو محاكمته ، وكذلك الأنباء والآراء التي تدل على مواطن الضعف فى وسائل الضبط والتحقيق ، كالقول مثلا إن الكلاب البوليسية تفقد حاستها فى الجو الحار أو فى موسم التلقيح أو إذا استنشقت مادة كاوية — وهى أنباء أسارع إلى نفيها — أو التي تدل على ثغرة فى نصوص القانون كالقول بأن لا عقاب على من يسرق مال أبيه أو زوجه أو ولده أو يخفى مالا مبددا وهلم جرا .

وقد يبدو غريبا أن نشر الأنباء التي تنوه بمجهود رجال البوليس فى كشف القضايا هو الآخر مثار للجدل. فبينما يرى البعض أن هناك فائدة محققة فى الإشادة بهذه الجهود من طريق حفز همة رجال البوليس وإرهاب المجرمين وتوطيد ثقة الشعب بالحكومة ، يعترض البعض الآخر قائلا إن نشر الثناء كثيرا ما يساء استخدامه سعيا وراء المنفعة الشخصية ، إلى حد الابتذال أحيانا ، وتعريض رجال الأمن أنفسهم لسخرية الجمهور ، وأن طريقة النشر كثيرا ما استهوت بعض طلاب الشهرة والإعلان فحولت جانبا من جهودهم إلى هذه الناحية على حساب العدالة . والواقع أن القضايا لا تخلو من أمثلة . فلقد حدث فى قضية ضبط فيها السلاح المستعمل مخبأ عند بيت المتهم أن اختلف اثنان من رجال البوليس فى أيهما صاحب الفضل فى اكتشافه كما اختلفا فى تحديد المكان الذى عثرا عليه فيه ، ومن هنا نفذ الشك إلى هذا الدليل وغيره من الأدلة .

بقيت مسألة أخرى ما زالت مصدرا للخلاف فى هل هى ضارة أم نافعة . ونعنى بها نشر أنباء الحيل والأساليب التي يستخدمها الفريقان ؛ رجل البوليس والمجرم ، كل منهما لإحباط عمل الآخر فى ميدان كفاح الجريمة . والأمر هنا يحتاج إلى تفصيل .

فأما عن الحيل التي يرتكبها المجرمون لتسهيل ارتكاب الجريمة أو لإخفاء معالمها وتضليل البوليس فإن إذاعة أمرها سلاح ذو حدين فهو من ناحية يفتح أعين المجرمين البادئين على فنون جديدة للإجرام لم يكونوا يعرفونها ، ويفسح المجال أمامهم للاقتباس منها بينما هو من الناحية الأخرى ينبه أذهان الجمهور إلى هذه الحيل فيجعلهم على حذر من الوقوع فى شراكها . والأمثلة على هذه الحيل تجل عن الحصر ولا يخفى على الجمهور اللبيب منها إلا القليل النادر

ويخضرني منها ما شاهدته من حيلة تلجأ اليها عصابات السلب والخطف بشيكاغو لتضليل البوليس تتضمن إعداد زرين أمام السائق إذا ضغط على أحدهما انقلبت لوحة السيارة على ظهرها فبدت تحمل رقما آخر كاذبا و إذا ضغط على الثانى أطلقت السيارة دخانا كثيفا يعوق البوليس عن المطاردة .

ومع أن الرأى المعمول به ما زال يغلب وجه المنفعة على وجه الضرر فى نشر حيل المجرمين فإن الأمر على خلاف ذلك بالنسبة للشراك التى ينصبها رجال البوليس للإيقاع بهم فليس يمكن أن تكون هناك أية فائدة من نشرها اللهم إلا لطائفة المجرمين الذين متى ألموا بها أعدوا عدتهم لإفسادها و إحباط عملها .

قد يقال إن فى نشرها تعزيزا لثقة الجمهور بكفاية البوليس وحفزا له إلى التعاون معه بدافع الإعجاب بمهارته ، غير أن الصحافة فى وسعها أن تصل إلى هذه الغاية نفسها دون احتياج لفضح تلك الأساليب ، فإن مجرد القول بأن البوليس قد تمكن بالفعل من ضبط المجرم و إيصاله إلى يد العدالة أدعى إلى اكتساب ثقة الجمهور من بسط حيل لجأ اليها البوليس ولكن لم تفلح مهما يكن فى هذه الحيل من ضروب المهارة والدهاء ، بل قد يكون الغموض والتحفظ فى الإشارة اليها أدعى إلى ردع الأشقياء الذين يرون فى هذا التكتم سلاحا خفيا يرهبهم خفاء أمره أكثر مما ترهبهم كفايته .

محمد البابلى

لزهير فى وصف محسن كريم :

تراه ، اذا ما جئته ، متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

ولفيكتور هوجو وهو يصف طبائع الناس :

الموت يفتح باب الشهرة ، ويغلق باب الحسد